

١ - أبو تمام

وموازين السرقات الشعرية عند ابن الأثير

للأستاذ دريني خشبة

استدركه عليه الأمدى ، لا يرى بداً من وضع خلاصة لذلك الفصل القيم الذى ختم به الأستاذ العلامة أبو الفتح بن الأثير كتابه (المثل السائر ، فى أدب الكاتب والشاعر)^(١) والذى خصصه للسرقات الشعرية ، ولا سيما عند أبي تمام والبحترى ، وابن الرومى والمتنبي ، وهو فصل من أبرع الفصول فى باب ، وأكثرها إحاطة بهذا الموضوع الذى تشعبت أطرافه ، وأكثر فيه إرجاف الرواة والنقاد . ومن الطريف أن ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ كان قد ألف فى ذلك الموضوع كتاباً قائماً بذاته ، ثم ضاع هذا الكتاب ، فموضنا منه بذلك الفصل خيراً

١ - فعند ابن الأثير أن الشاعر إذا أورد شيئاً من ألفاظ شاعر آخر ، فى معنى من معانى هذا الشاعر ، ولو كان ذلك لفظة واحدة ، فإن ذلك يكون دليلاً قاطعاً على سرقة

٢ - ويقسم السرقات الشعرية إلى خمسة أقسام : هى النسخ ، والسخ ، والمسخ ، وأخذ المعنى مع الزيادة عليه ، ثم عكس المعنى إلى ضده

٣ - أما النسخ ، فهو أخذ اللفظ والمعنى برمتيه ، من غير زيادة أو نقصان ؛ وأما السخ فهو أخذ بمض المعنى ، وأما المسخ فهو إحالة المعنى إلى ما دونه

٤ - ويعود ابن الأثير فيجعل النسخ على ضربين : فإما أخذاً كاملاً كما تقدم ، وإما أخذ معظم اللفظ والمعنى كله ، كقول أبي نواس :

دارت على فتية ذل الزمان لهم فما يصيبهمو إلا بما شاءوا
فقد نسخته من بيت فى أصوات معبد ، وذكره أبو الفرج :
لحقى على فتية ذل الزمان لهم فما أصابهمو إلا بما شاءوا
ومثل قول أبي تمام :

محاسن أصناف اللغنين جمة وما قصبات السبق إلا لمعبد
نسخه ممن مدح معبد ، وذكره أبو الفرج ، فقال :
أجاد طويس والسريجي بعده وما قصبات السبق إلا لمعبد !!
٥ - ثم يقسم السخ فيجمله أحد عشر^(٢) نوعاً : « وهذا

رأينا أن أبا تمام لم يشغل طول حياته بنير الشعر تأليفاً وتصنيفاً ، ورأينا كيف كان يختار مرة المشهورين ثم يختار أخرى لغير المشهورين ، فيحكم ذوقه النقاد فى الحالين ، فلا يقدم إلينا إلا كل درة وكل غرة من درر الشعر العربى وغرره ... ولم يكن أبو تمام مصنفًا ومؤلفًا فحسب ، بل كان حافظاً ، بل كان أمجوبة فى الحفاظ الذين اشتهر بهم تاريخ الفكر العربى ... ورأينا اتفاق آراء خصومه وأصدقائه على أنه كان يأخذ المعنى ، فى معنى بتخميره - على رأى الأمدى - أو بالانكسار فيه على نفسه - على رأى الصولى - حتى يخلص له آخر الأمر ، أو لا يخلص له ، بل يشوهه وينقص منه ، كما صرح بذلك دعبل وابن الأعرابى والتوحي وأبو هذان وأبو حاتم السجستاني وغيرهم من أعداء أبي تمام ...

وقبل أن نأخذ فى عرض طائفة من سرقات أبي تمام ، مما

وعندما يصبح السياسيون من قادة الفكر مستعجدين العلاقة بينهم وبين بيتاتهم . فللرجل الفكر فى وسطه مهمتان : أولاهما أن يبصر قومه بحالتهم الحقيقية ، حتى يعوا ما هم فيه من شقاء وتخلل ، وذوو النظر مجمعون على أن البؤس ذاته لا يحرك الشعوب ، وإنما يحركها أن تفطن إلى ما هى فيه من بؤس . ولعل فى حالة الفلاح المصرى أوضح دليل على ما نقول ، ومهمته الثانية هى أن يسبق الأمم إلى آمالها النامضة ، ومن هنا ترى أغلبية الكتاب المفكرين من الداعين إلى الأفكار المتقدمة ، فهم رسل الرجاء وبالسننهم تشكو النفوس آمالها وتطلع إلى سعادة أئمتهم . وهذا هو السر فى أنهم يعيشون دائماً فى كفاح مع بيتاتهم وكثير منهم لا يستجاب لندائهم إلا بعد موته بسنين ؛ فعندئذ يقر لهم بالفضل وتقام لهم النصب وتنزل آراؤهم من القلوب منزلة الإيمان

محمد منور

(١) النسخة التى نلخص منها هذا الفصل هى التى نشرها الأستاذ الفاضل محمد محيى الدين عبد الحميد وعنى أحسن العناية بتحقيقها
(٢) المذكور فى كل النسخ أنها اثني عشر نوعاً إلا أن الوجود فيها بالقليل أحد عشر فقط

من ورر السارق في نظر ابن الأثير أن يبيىء بلفظ أحلى ، أو معنى زائد فيه جمال . . أما أن ينحط عن الأصل ، فهذه هي الشناعة التي ما مثلها شناعة عنده !

— والرابع أن يؤخذ المعنى فيمكس . وهو حسن يكاد يخرج حسنه عن السرقة ، كقول أبي الشيص :

أجد اللامة في هواك للذبة شغفاً بذكرك فليعلمي اللوم
عكسه المتنبي فقال :

أحبه وأحب فيه ملامة ؟ إن اللامة فيه من أعدائه
— والخامس أخذ بعض المعنى ، كقول أبي تمام :

بدعى عطاياه وفرا وهي إن شهرت
كانت خفاراً إن يعفوه مؤتفقا

ما زلت منتظراً أنجوبة زمناً حتى رأيت سؤالاً يجتني شرفاً
أخذه من قول أمية بن أبي الصلت :

عطاؤك زين لاسرى إن حيوته ببذل ، وما كل المطاء زين
وليس بشين لاسرى بذل وجهه

إليك كما بعض السؤال يشين
— والسادس هو أن يؤخذ المعنى فيراد عليه معنى آخر ،

كقول ولد مسلمة :

أذل الحياة ، وكره المات وكُلا أراه طعاماً وبيلاً
فإن لم يكن غير إحداها فسيرا إلى الموت سيراً جميلاً
أخذه أبو تمام فقال :

مثل الموت بين عينيه والذل وكُلاً رآه خطباً عظيماً
ثم سارت به الحمية قدماً فأما العدا ومات كريماً

فزاد في المعنى : فأما العدا ومات كريماً
— والسابع أن يؤخذ المعنى فيكسى عبارة أحسن من

الأولى ، وهنا تتجلى عبقرية أبي تمام ... ولله من قال : من سرق
معنى واسترقه ، فقد استحققه : وإن كنا لا نشجع السرقة !!

قال بعض الشعراء :

مُخَصَّرة الأوساط زانت عقودها
بأحسن مما زينتها عقودها

أخذه أبو تمام فقال :

كأن عليها كل عقد ملاحه
وحسناً وإن أنحت وأصمت بلا عقد
وسطاً عليه البحترى فقال :

التقسيم أوجبه القسمة ، وإذا تأملته علمت أنه لم يبق شيء
خارج عنه !

فالأول : أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ، ولا
يكون هو إياه ، وهذا من أدق السرقات مذهباً ، وأحسنها
صورة ، ولا يأتي إلا قليلاً كقول بعضهم :

لقد زادني حباً لنفسى أننى بغيض إلى كل امرئ غير طائل
أخذه المتنبي فقال بيته المشهور :

وإذا أنتك مذمتى من ناقص فهي الشهادة لى بأنى كامل
وقول أبي تمام :

رعته الفياق بعد ما كان حقبة رعاها وماء الروض ينهل ساكبه
أخذه البحترى فقال :

ركبا القنا من بعد ما حمل القنا في عسكر متحامل في عسكر !
والثاني : أن يؤخذ المعنى مجرداً من اللفظ ، وهو صعب

قليل الورد ، بل هو من أشكلها ، وأدقها ، وأغربها ، وأبعدها
مذهباً ، كقول أبي تمام :

فتى مات بين الضرب والطمع ميتة
تقوم مقام النصر إذ فاته النصر

فقد سلخه من قول عروة بن الورد :

ومن يك مثلى ذاعيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذراً . أو ينال رغبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجج

ولا يخفى ما في بيت أبي تمام من الجمال والمبقرية في السلخ
مع حسن السبك !

والثالث : أخذ المعنى ويسير من اللفظ ، وهو عند ابن الأثير
من أقيح السرقات وأظهرها شناعة ، وقد افتضح بهذا النوع

البحترى خاصة ، ووقع فيه أبو تمام كثيراً ، مثل قوله :

فلم أمدحك تفخيماً بشعري ولكن مدحت بك المديح
فقد سلخه من قول حسان :

ما إن مدحت محمداً بمقالتي لكن مدحت مقالتي بمحمد
وقول ابن الرومي :

جرعته السيون فاقتص منها
يجوى في القلوب داي الندوب

فقد سلخه من قول أبي تمام :

أدميت بالاحفظات وجنته فاقتص نازله من القلب !
وسرقة ابن الرومي ظاهرة مفضوحة لا شك فيها ويخفف

وذلك أن يسلك الشاعران طريقاً واحدة تنتهي بهما عند جنتين مختلفتين ! ثم تتجلى فيهما عبقرية كل منهما ... وقد ضرب ابن الأثير لذلك مثلاً قصيدة لأبي تمام في الرثاء بولدين وقصيدة المتنبي في الرثاء بولد . ومطلع قصيدة أبي تمام :

ما زالت الأيام تخبر سائلاً أن سوف تفجع مسهلاً أو عقلاً
وهي موجهة إلى عبد الله بن طاهر . ومطلع قصيدة المتنبي :

بنا منك فوق الرمل ما بك في الرمل

وهذا الذي يضني كذا الذي يبلى

وهي في رثاء أبي الهيثم بن سيف الدولة وقد توفى صغيراً ، ثم أقام بينهما موازنة يشوهها التلخيص ، فيحسن الرجوع إلى المثل السائر ليشهد القارى مثلاً من أمثلة العبقرية العربية في النقد الأدبي الدقيق (ج ٢ ص ٣٩١ وما بعدها) ، وإن ظهر فيها ابن الأثير متحزباً (بحق) المتنبي ، مع سلخ المتنبي كثيراً من معاني أبي تمام . ثم إنه فضل المتنبي على البحتري في وصفهما الأسد في قصيدتين متشابهتين تواردا على كثير من معانيهما ، ولعل هذا التوارد هو الضرب الثاني عشر من السلخ الذي لم يشر إليه ابن الأثير

ثم يعرف ابن الأثير المسخ فيذكر أنه « قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة ... والعكس » على أن هذا العكس ليس في رأينا مسخاً ، بل هو خلق وإبداع وتجميل يقتضيه الذوق

الدقيق الصانع

قال أبو تمام :

فتى لا يرى أن الفريضة مقتل ولكن يرى أن العيوب مقاتل
مسخ صورته المتنبي فقال :

يرى أن ما بابان منك لضارب * بأقتل مما بان منك لعائب
والمسخ هنا هو في تجاوز ما وما المختلفتين معنى

وحسبنا الآن هذا القدر مما لخصناه من ابن الأثير ، وهو تلخيص نضمه بين يدي القارى العجّل ، ليكون نوراً يكشف له جوانب الظلام وجوانب العبقرية ، فيما سقدمه له من سرقات أبي تمام التي أحصاها عليه الآمدى . ولو أن ابن الأثير تولى عنا الفصل بين أبي تمام وخصومه ، لأمدنا بذخيرة لا تنفد ، ويد لا تجحد ... رحم الله تقادنا الأفاذا وجزام عنا خيراً

دميني فضيحة

إذا أطفأ الياقوت إشراق وجهها

فإن عشاء ما توخت عقودها

وكلاهما رفق المعنى وزاده حسناً

— والثامن أن يؤخذ المعنى ويوجز في سبكه ، وهو عند

ابن الأثير من أحسن السرقات كقول أبي العتاهية :

وإني لمعذور على فرط حبها لأن لها وجهاً يدل على عذري

— أوجز فيه أبو تمام فقال :

له وجه إذا أبصر ته نجاك عن عذري

وقول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته

وفاز بالطيمات الفاتك الحج

أوجز فيه تلميذه سلم الخامس فقال

من راقب الناس مات غماً وفاز باللسنة الجسور

— والتاسع أن يكون المعنى عاماً فيجمله السارق خاصاً

والعكس : كقول الأختل :

(ونسبه الناشر إلى أبي الأسود) :

— لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

خصمه أبو تمام فقال :

أألوم من بخلت يده وأعتدى للبخل رباً ؟ ساء ذلك صنيعاً

وقال أبو تمام :

ولو حاربت شول عذرت لقاحها

ولكن منعت الدرّ والضرع حافل

عممه المتنبي فقال :

وما يؤلم الحرمان من كف حارم

كما يؤلم الحرمان من كف رازق

— والعناصر زيادة البيان مع المساواة في المعنى ، أو ضرب

مثال يوضح المعنى المسلوخ : كقول أبي تمام

قد قلّصت شفتاه من حفيظته

نخيل من شدة التعميس مبتها

توسع فيه المتنبي فقال :

وجاهل مدم في جهله ضحكي حتى أنته يد فراسة وفم

إذا رأيت نبوب الليث بارزة فلا تظن أن الليث يبتسم

وهذا عند ابن الأثير من المبتدع لا من المسروق

— والحادي عشر هو اتحاد الطريق واختلاف المقصد ...